الفصل الأول

الظاهرة الاستعمارية والمقاومة

١ - الظاهرة الاستعمارية .
٢ - الظاهرة الاستعمارية فى العالم العربى .
٣ - ظاهرة المقاومة فى العالم العربى .

١ - الظاهرة الاستعمارية

الاستعمار ، بمعنى فرض السيطرة والاستغلال على المجتمعات الأخرى ، ظاهرة بشرية قديمة . وقد نشأت مع ظهور الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، وتغيرت أشكالها بتغير أشكال هذه الملكية . ففى مرحلة العبودية ملكت أثينا وفينيقيا وقرطاجة وروما مستعمرات واسعة للحصول على المحاصيل الزراعية خصوصًا القمح - واجتلاب العبيد ، لزيادة القوة العاملة الرئيسية . وفى مرحلة الإقطاع احتاج الإقطاعيون لغزو أراضى الشعوب الأخرى لتوسيع ممتلكاتهم . فالغزو الصليبى ، على سبيل المثال ، لم يكن فى جوهره إلا تنفيسًا عن التشبع الذى بلغه النظام الإقطاعى فى أوربا عند نهاية القرن العاشر ، وأدى إلى تكاثر وتقاتل الطبقة الإقطاعية على الأرض الزراعية التى ضاقت بها . وكانت هذه الطبقة هى التى قادت الحروب الصليبية وخرجت إلى الشرق تبحث عن أراض إقطاعية . أما الاستعمار فى المرحلة الرأسمالية ، فقد انبثق من طبيعة الطبقة البورجوازية فى أوربا ، التى ولدت فى رحم المجتمع الإقطاعى منذ القرن الحادى عشر ، وأخذ يتطور مع تطور هذه الطبقة من رأسمالية تجارية إلى رأسمالية صناعية إلى رأسمالية مالية احتكارية ..

ويعتبر الاستعمار الرأسمالى ، أو الاستعمار الحديث ، أبشع وأعقد ألوان الاستعمار التى مرت بها البشرية . ففى مرحلة ما قبل الرأسمالية ، حيث كان الاحتلال العسكرى والحكم المباشر هو الوسيلة الوحيدة لفرض العلاقات الاقتصادية الاستغلالية على الدولة المستعمرة ، كان التخلص من هذا الاحتلال وإنهاؤه يعنى تصفية هذه السيطرة وزوالها . ولكن فى مرحلة الرأسمالية ، أو مرحلة الاستعمار الرأسمالى ، لم تعد العلاقات الاقتصادية الاستغلالية تزول

بزوال السيطرة العسكرية أو بزوال الحكم المباشر ، وإنما أصبحت هذه السيطرة الاقتصادية الاستغلالية تمثل ميراثًا ثقيلا يبقى بعد رحيل المستعمرين .

ويرجع الفضل فى هذا الفارق الهام بين استعمار ما قبل الرأسمالية والاستعمار فى مرحلة الرأسمالية ، إلى الطبيعة الاستغلالية للطبقة الرأسمالية التى تختلف عن الطبيعة الاستغلالية للطبقة الإقطاعية فى العهد الإقطاعى أو الطبيعة الاستغلالية للسادة فى عصر العبيد . ففى كل مرحلة من مراحل الإنتاج تفرض وسائل الإنتاج نوعًا من العلاقات يحدد بالضرورة الطبيعة الاستغلالية للطبقة التى تملك هذه الوسائل الإنتاجية . وعلى سبيل المثال ، فإذا كانت وسائل الإنتاج فى مرحلة العبودية قد فرضت الاستعمار لاجتلاب العبيد والحصول على المحاصيل ، وإذا كانت وسائل الإنتاج فى مرحلة الإقطاع قد فرضت الاستعمار لتوسيع رقعة الأرض الإقطاعية ، فإن وسائل الإنتاج فى مرحلة الرأسمالية قد فرضت أنواعًا أخرى من الاستعمار لم تعرفها المرحلتان السابقتان ، تقوم على الربح بالدرجة الأولى .

ففى الطور الأول من أطوار نمو الرأسمالية ، حيث كانت وسيلة الإنتاج هى التجارة ، وكانت الطبقة التى تملك هذه الوسيلة هى البورجوازية التجارية – فإن هذه الوسيلة قد فرضت على الطبقة البورجوازية التجارية أن تعيش فى مراكز تجارية خاصة بها أشبه بجزر وسط المحيط الزراعى الإقطاعى العريض ، تتمثل فى مفارق الطرق التجارية القديمة ، أو مصاب الأنهار والخلجان ، أو بقايا المدن الرومانية القديمة التى تعرف باسم burg أو bourg التى أكسبت هذه الطبقة اسمها « بورجوازية » .

ثم سعت بشراء حقوق استقلالها الذاتى من أمراء الإقطاع والكنيسة فيما عرف ببراءات الإعفاء . ثم أخذت هذه المدن الصغيرة تنمو مع نمو الطبقة البورجوازية ، وتسعى إلى الوحدة فيما بينها طلبًا للقوة . مثل عصبة المدن الهانسية ، التى تكونت من المدن الألمانية التجارية فى شمال أوربا ، وكونت

قوات مسلحة خاصة بها لحماية تجارتها . ودخلت فى حرب مع الدول الإسكندنافية الثلاث . وقد خاضت هذه المدن البورجوازية نضالا جبارًا لإسقاط حواجز الإقطاع فى أوربا . وساندت الملكية ضد أمراء الإقطاع ، حتى برزت منذ أواخر القرن الخامس عشر الدول القومية التى صنعت تاريخ أوربا الحديث .

وقد فرضت التجارة على هذه الطبقة البورجوازية فى أوربا البحث عن الربح . وفرض البحث عن الربح احتكار الأسواق . ولما كانت التجارة – تجارة التوابل الهامة بصفة خاصة – مع جزر الهند الشرقية ، يقع احتكارها فى طرفها الغربى فى يد البورجوازية الإيطالية فى البندقية ، وفى طرفها الشرقى تقع فى يد البورجوازية العربية الإسلامية ، فإن نمو الطبقة البورجوازية البرتغالية والإسبانية قد أدى إلى نتيجته الطبيعية ، وهى محاولة الكشف عن طريق بحرى حول أفريقيا للوصول إلى جزر الهند الشرقية ، فكان ذلك فاتحة حركة الكشوف الجغرافية .

ولقد كانت هذه الحركة الكشفية فاتحة للحركة الاستعمارية الجديدة ، وهذه الحركة الأخيرة حددتها الطبيعة الاستغلالية للطبقة البورجوازية فى ذلك الحين . فنظرًا لأن طبيعة الاستغلال فى تلك المرحلة كانت تجارية ، فقد اقتصر اهتمام الاستعمار فى ذلك الحين على الأشرطة الساحلية للقارات ، وبرزت الأسماء الجغرافية التى تعبر عن طبيعة هذه المرحلة . مثل : ساحل غانا ، ساحل الذهب ، ساحل العاج ، ساحل الزنج ، ساحل ملابار ، ساحل كروماندل ، وساحل كارناتيك .

وقد ظل طابع الاستعمار فى هذه المناطق طابعًا تجاريًّا هدفه الربح ، وليس استغلال الأرض . فلم يتعد الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا فى ذلك الحين عدة مراكز تجارية أو محطات للوصول إلى الهند . ولما تم الوصول إلى الهند أهملت هذه المراكز إلا عددا قليلا منها ظل يعمل فى تجارة العاج وبعض المنتجات

الأفريقية . وعندما اكتشفت أمريكا ، واحتاجت حقول القصب والمطاط إلى الأيدى العاملة تحولت هذه المراكز إلى تجارة الرقيق ، دون أن يمتد النفوذ إلى الداخل أو يصحب هذا النفوذ استغلال الأرض . واستمرت هذه المراكز طيلة القرن السابع عشر والثامن عشر ، حتى قامت حركة مقاومة تجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر ، فضعفت تلك المراكز إلى حد التصفية .

وكانت أكبر المراكز الباقية هى أنجولا وموزمبيق . وما يقال عن أفريقيا يقال عن آسيا . فيما عدا أن الاستعمار فى أفريقيا كان استعمار العبيد والذهب أما فى آسيا فكان استعمار التوابل . كذلك الحال بالنسبة للاستعمار الهولندى والإنجليزى والفرنسى والذى لم يختلف كثيرًا عن الاستعمار البريطانى ، وهذا يفسر كيف أن مسئولية الاستعمار فى هذه البلاد وقعت على عاتق الشركات التجارية ذاتها ، وليس على عاتق الدول . فبرزت شركة الهند الشرقية المتحدة التى تأسست فى هولندا عام ١٦٠٢ ، وشركة الهند الشرقية البريطانية التى تأسست سنة ١٦٠١ . وشركة الهند الشرقية الفرنسية التى تأسست سنة ١٦٦٤ . وقد امتلكت هذه الشركات الأساطيل الحربية والجيوش ، وتولت نيابة عن الدول توسيع النفوذ الاستعمارى وبناء الإمبراطوريات فيما وراء البحار ، والقيام بعملية الاستغلال .

أما فى العالم الجديد فى الأمريكتين وأستراليا ، فقد هاجرت أفواج من السكان الأوربيين لاستيطان السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية ، بعضهم هربًا من الاضطهاد الدينى ، والبعض الآخر هربًا من التضخم الإسكانى الذى يزيد عن حاجة العمل . وكونت أوطانًا جديدة نقلت إليها حضارتها وقوانينها وتقاليدها وأسلوب حياتها . ولكن فى حوض البحر الكاريبى وسواحل أمريكا الجنوبية ، اتخذ الاستعمار على يد الأسبانيين ، الذين اتبعوا الثراء السريع ، شكلا آخر . فلم تجذبهم حقول الذرة والقمح ، وإنما جذبهم بريق الذهب والفضة ، فأطبقوا على ثروات أصحاب المدنيات الأمريكية الأصلية : الأزتك والأنكا والمايا . واندفعوا لنهب مناجم الذهب والفضة فى المرتفعات الغربية فى

المكسيك وبيرو ، التى أخذت تتدفق على الموانى الأسبانية . وأصبحت أسبانيا هى القناة التى تجرى فيها الفضة إلى بقية القارة الأوربية ، ليبدأ بذلك عصر الفضة فى أوربا . أما فى المناطق التى لم يكن بها ثروة سوى الزراعة المدارية ، فقد عمد الأسبان فى جزر الهند الغربية وشرق القارة وشيلى ، والبرتغاليون فى البرازيل ، إلى اجتلاب الرقيق لاستنزاف قواهم فى زراعة القصب والقطن وغيره من السلع التى تحتاجها أوربا .

وفى ذلك الحين كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح قد سحب مركز الثقل فى التجارة العالمية من دول البحر المتوسط إلى دول الأطلنطى ، كما أدى إلى اضمحلال مركز مصر والبلاد العربية الواقعة على شاطئيه الشرقى والجنوبى . ولما كانت هذه البلاد العربية قد وقعت تحت السيادة العثمانية ، وكانت الدولة العثمانية قد أصبحت دولة بحرية من الدرجة الأولى ، بفضل القواد البحريين الذين اشتهروا بالمهارة والبطولة الدينية . مثل خير الدين بربروس ، « الذى أخضع الجزائر وتونس » وطورغوت « الذى أخضع طرابلس وجعلها ولاية عثمانية – فقد كان فى ذلك ما صرف جهود المستعمرين الأوربيين فى دول الأطلنطى إلى ميادين الاستعمار الأخرى فى العالم الجديد أو العالم القديم حول أفريقيا .

على أن التناقض الاستعمارى بين دول البحر المتوسط الأوربية ودول الأطلنطى – للسيطرة على أسواق الاحتكارات فى العالم القديم – وجد فى مصر محوراً عظيم الشأن . بسبب قربها من الهند من جهة ، وإمكان شق قناة فى برزخ السويس تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، وتعيد حركة النقل فى التجارة العالمية إلى دول البحر المتوسط من جديد – من جهة أخرى .

وقد عبر ليبنتز leibnitz الألمانى عن ذلك فى عبارة بليغة فى مشروعه الذى قدمه إلى لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ بقوله « إن غزو هولندا عن طريق مصر أسهل من غزوها فى عقر دارها » . وكان من الطبيعى أن يلعب التجار

الفرنسيون فى مصر دورًا هامًّا فى تأكيد هذا الرأى ، وخلق رأى عام فرنسى يلح فى السيطرة على مصر وشق القناة . وساعد على ذلك اشتداد الصراع الفرنسى الإنجليزى على الهند ، وتدهور قوة الدولة العثمانية ، ونشوب الثورة الفرنسية ، واندلاع نيران الصراع الاستعمارى فى أوربا . فدخلت فكرة الاستيلاء على مصر فى حيز التنفيذ وبدأت الجولة الأولى بالحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ .

فى ذلك الحين كان الصراع بين الدول الاستعمارية قد أخذ يختزل بعض القوى لحساب البعض الآخر . فتحطمت البرتغال على يد أسبانيا فى أواخر القرن السادس عشر . وجاءت هولندا لترث دورها وتجارتها ومستعمراتها فى القرن السابع عشر . ثم تحطمت هولندا على يد فرنسا فى نهاية ذلك القرن ، وجاءت إنجلترا التى كانت قد حطمت قوة أسبانيا البحرية ، لترث دورها التجارى . وعند نهاية القرن الثامن عشر كانت الدولتان الاستعماريتان اللتان تحتلان مركز الصدارة والقوة هما فرنسا وإنجلترا .

وفى الوقت نفسه كانت أسواق الهند والصين واستعمار الأمريكتين وتدفق الفضة والذهب والبضائع بوجه عام على أوربا ، قد دفع بالتجارة والملاحة والصناعة خطوات واسعة إلى الأمام ، وأخذ ينقل الرأسمالية الأوربية إلى طور جديد . ذلك أنه مع اتساع الأسواق وقدرتها على التصريف واستيعاب كميات كبيرة من الإنتاج أصبحت وسائل الإنتاج الصناعى الحرفى القديم عاجزة عن تلبية الحاجات ، وأصبح من الضرورى تطورها ، ولكن لما كانت علاقات الإنتاج شبه الإقطاعية السائدة فى أوربا فى ذلك الحين تحول دون تطور هذه الوسائل ، فلذلك صار من الضرورى إسقاط هذه العلاقات . وقد بدأ ذلك فى إنجلترا دون ثورة دموية بسبب تفوق الطبقة البورجوازية فيها ، ولكنه لم يتم فى فرنسا إلا عن طريق ثورة دموية هى الثورة الفرنسية . وبتوافق علاقات الإنتاج مع قوى الإنتاج أخذت عجلة الإنتاج تقفز قفزات سريعة فيما اصطلح على تسميته باسم الثورة الصناعية . أو الانقلاب الصناعى .

وقد بدأ ذلك فى إنجلترا منذ ١٧٦٠ ، فأخذت الآلات تحل محل العمل اليدوى ، كما أخذ تقسيم العمل الحرفى يختفى أمام تقسيم العمل داخل المصانع . أما فى فرنسا فبدأ الانقلاب منذ عام ١٨١٥ ، كما بدأ فى ألمانيا وإيطاليا بعد ١٨٧٠ ، وأصبحت الولايات المتحدة قوة صناعية قبل ١٨٥٠ .

وكان من الطبيعى أن يفتتح هذا الانقلاب الصناعى مرحلة استعمارية جديدة . ذلك أن هذا الانقلاب خلق اقتصادا مفتوح الشهية للمزيد من المواد الأولية ، وبالتالى للتوسع والسيطرة .. كما أحدث انقلابا فى مفهوم السوق . فبعد أن كانت السوق فى مرحلة الاستعمار التجارى سوق احتكار شراء بالدرجة الأولى ، أصبحت فى المرحلة الصناعية سوق احتكار شراء وبيع : احتكار شراء مواد خام بأبخس الأسعار ، واحتكار بيع مواد مصنعة بأغلى الأسعار . وفى الوقت نفسه أدى الانقلاب الهائل فى وسائل النقل والمواصلات إلى توطيد واستكمال الوحدة القومية داخل الدول الاستعمارية من جهة ، وإلى تغيير الطبيعة التجارية الساحلية للاستعمار من جهة أخرى . فحتى نهاية القرن الثامن عشر كان الوجود الاستعمارى الأوربى فى القارات الجديدة والقديمة وجودًا ساحليًّا بحتًا . ولكنه بعد انقلاب وسائل المواصلات الجديدة أخذ يتغلغل داخل القارات ، حتى إذا ما انتهى القرن ، كان كل شبر قد احتل استعمارًا أو تعميرًا .

وفى المرحلة الأولى من الانقلاب الصناعى ، وهى مرحلة تصدير البضائع ، كانت المزاحمة الحرة هى الطابع المميز ، بل كانت فى نظر الاكثرية تعد قانونا طبيعيًّا . ولكن هذه المزاحمة لم تلبث أن أخذت تؤدى إلى تمركز الإنتاج ثم إلى الاحتكار . وفى الوقت نفسه فإن عدم قدرة موارد الاتحادات الصناعية على تمويل المشروعات التوسعية العديدة ، قد أدى إلى قيام الاتحادات المالية الكبرى بتمويل هذه المشروعات الصناعية من جهة ، وإقراض البلاد الخارجية لزيادة قدرتها على استيعاب السلع الصناعية ، من جهة أخرى . ومع استمرار التوسع الصناعى ، حل تصدير المال محل تصدير السلع . وشهدت السنوات من ١٨٦٠

إلى ١٨٧٠ بداية السيطرة المالية الاحتكارية على جميع أسواق العالم . وما وافى القرن العشرون حتى كان العالم قد أصبح مقسمًا بين الاحتكارات المالية والدولية .

وسرعان ما تأثرت الحركة الاستعمارية للرأسمالية الأوربية بهذه التطورات جميعها . ففى المرحلة السابقة على عام ١٨٦٠ أخذت البضائع تتدفق من أوربا على العالم القديم بكل نتائجها الضارة على اقتصاد تلك البلاد . وفى الوقت نفسه ، فإن ظهور التكنيك الحديث وتزايد الإنتاج ورخصه ، وقوة المنافسة الحرة ، قد نزع وسائل العيش من أيدى الملايين من الأوربيين ، وقذف بهم من أوربا إلى المستعمرات والبلاد المتخلفة سعيًا وراء الرزق السهل ، والوظائف الميسرة ، والاستثمار المتاح ، والسلب والنهب . كما أدى نمو قوى الإنتاج ، واشتداد المنافسة الرأسمالية ، بكثير من أصحاب رءوس الأموال إلى التدفق على البلاد المتخلفة بحثًا وراء أسواق جديدة لبيع فائض المصنوعات وفتح مجالات جديدة للاستثمارات .

أما المرحلة الثانية من مراحل تطور الرأسمالية الأوربية ، وهى مرحلة تصدير رأس المال ، فقد بدأت بشكل جاد منذ العقد السابع من القرن التاسع عشر نتيجة لتراكم فائض رأس المال الأوربى بكميات هائلة ، والرغبة فى تصديره إلى البلدان المتأخرة ، حيث رءوس الأموال فيها قليلة ، وأسعار الأرض منخفضة والأجور زهيدة ، والخامات رخيصة . وقد تم تصدير رأس المال عن طريق البنوك « الخاصة » ، « والمساهمة » ، التى أخذت تنتشر انتشارًا سريعًا ومكثفًا ، حتى لقد تأسس فى لندن وحدها فى الفترة من ١٨٦٢ - ١٨٦٥ خمسون بنكًا جديدا للعمل فى الخارج . وفى عام ١٩٠٤ كان عدد فروع بنوك إنجلترا فى المستعمرات يبلغ ٢٢٧٩ فرعا . وفى فرنسا تأسست ثلاثة بنوك مساهمة كبرى فى النصف الأول من العقد السابع . وفى سنة ١٩٠٤ كان لدى فرنسا عشرون بنكا فى المستعمرات لها ١٣٦ فرعًا . أما ألمانيا ففى الفترة فيما بين ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ افتتحت البنوك الألمانية ٧٥ فرعًا فى الخارج لمنافسة بريطانيا فى مجال التوسع الاستعمارى .

وقد أخذ تصدير رأس المال إلى البلاد المتخلفة والمستعمرات شكل تقديم القروض المالية للحكام والحكومات ، وإنشاء الفروع للمصارف والبنوك للتسليف على مشاريع التجارة والزراعة والصناعة بضمان السلع والمحاصيل ورهن الأراضى والأملاك . كما اتخذ شكل استثمار رءوس الأموال فى تنفيذ مشاريع المرافق العامة . وإنشاء الشركات الصناعية والتجارية والزراعية التى تحصل على ضمانات الاحتكار والتسهيلات اللازمة لخروج الأرباح ورءوس الأموال .

٢ - الظاهرة الاستعمارية فى العالم العربى

شهدت المنطقة العربية كل هذه الأشكال من الاستثمارات الاستعمارية إلى جانب الأشكال السابقة من الاستغلال ، مما ترتب عليه نهب موارد هذه البلاد ، وتخريب اقتصادها ، وضياع استقلالها ، ووقوعها فى النهاية تحت الاحتلال العسكرى للاستعمار .

وقد لعبت الامتيازات الأجنبية التى أبرمتها الدول الأوربية مع السلطان العثمانى والتى طبقت فى البلاد العربية نتيجة لوقوعها تحت الولاية العثمانية ، دوراً خطيرًا فى تسهيل وقوع الشعوب العربية فى قبضة الاستغلال الاستعمارى الأوربى ، خصوصاً بعد أن ضعفت الدولة العثمانية ، وضعفت الولايات العثمانية . وقد فتحت المعاهدة التجارية التى أبرمت بين إنجلترا وتركيا عام ١٨٣٨ فى بلطه ليمان ، والتى أقرت حرية التجارة ، الطريق لدخول البضائع الإنجليزية إلى الأسواق العربية ، حتى ازداد حجمها فى الإمبراطورية العثمانية بعد عامى ١٨٤٠ - ١٨٥٠ حوالى ثلاث مرات . وجاءت المعاهدات التى أبرمت على نمطها مع فرنسا وبلجيكا وهولندا وبقية الدول الأوربية لتفتح الباب على مصراعيه للبضائع الأوربية ، مما أدى إلى انهيار المراكز الصناعية القديمة فى البلاد العربية وانقراض كثير من الحرف والصناعات فيها . ففى مدينة دمشق انخفض عدد الصناعات من ١٩٦٦ صناعة إلى ١٣٩٥ صناعة فى الفترة من ١٨٥٢ - ١٨٨٩ ، وقل عدد العاملين فيها من ٣٠ ألف عامل إلى ثمانية آلاف . وفى مدينة تونس تقلص عدد الحرفيين من ستة أو سبعة آلاف حرفى إلى ألفين فقط فى ربع القرن الأول من الحماية .

وقد أدى تطور التجارة الخارجية إلى توسع طرق المواصلات كفتح قناة

اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية
رومانيا
بلغاريا
تركيا
أفغانستان
إيران
جمهورية مصر العربية
المملكة العربية السعودية
جمهورية السودان
جمهورية اليمن الشعبية
ليبيا
كينيا

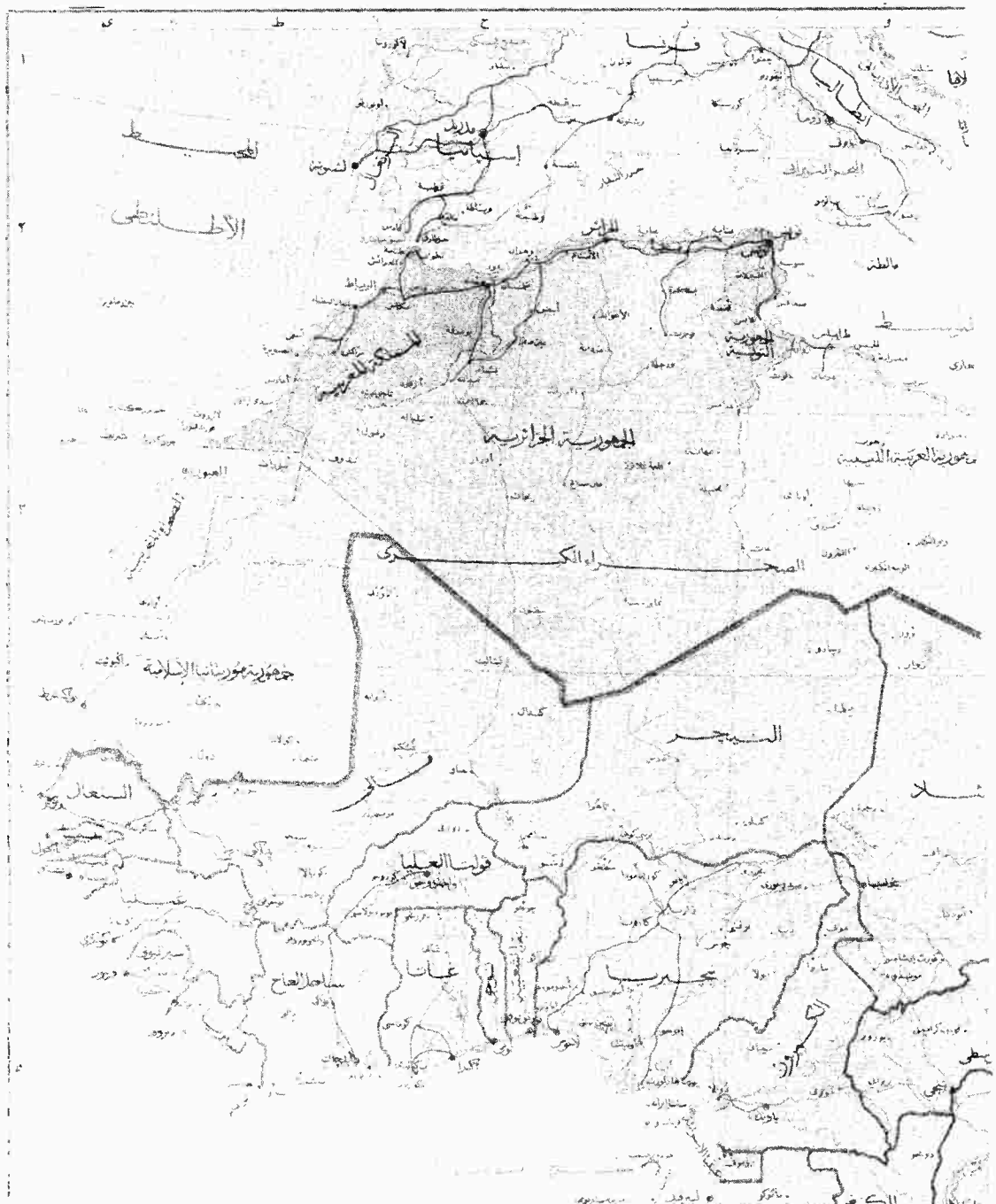
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
إسبانيا
فرنسا
إيطاليا
مالطة
المملكة المغربية
الجمهورية التونسية
الجمهورية الجزائرية
الجمهورية العربية الليبية
الصحراء الكبرى
جمهورية موريتانيا الإسلامية
السنغال
مالي
النيجر
تشاد
نيجيريا
بوركينا فاسو
غانا
توغو
بنين

السويس ، وإنشاء الموانى فى الإسكندرية وتونس . وشق طريق بيروت – دمشق ، والحصول على امتيازات مد خطوط السكك الحديدية ، كما حدث فى مصر فى عهد عباس ، وكما حدث فى تونس حين حصل الفرنسيون على امتياز بمد سكة حديدية تمتد من تونس إلى تخوم الجزائر فى عهد خير الدين ، وكما حدث فى العراق من فتح امتياز خط سكة حديد بغداد من الأناضول إلى البصرة والخليج على يد شركة ألمانية فى عهد السلطان عبد الحميد .

وفى الوقت نفسه أخذ الإنتاج الزراعى فى البلاد العربية يتخذ شكل الإنتاج السلعى المرتبط بالسوق العالمية ، كالقطن وقصب السكر فى مصر ، والقطن والحبوب والتبغ والحرير فى سوريا . وفى بداية القرن العشرين استهلكت فرنسا ثلث الصادرات السورية ، كما استوردت إنجلترا والممتلكات الإنجليزية فى الهند ثلث صادرات العراق . واعتمد إنتاج وتصريف محاصيل العراق الزراعية اعتماداً كليًّا على المصدرين الإنجليز . كما اعتمدت زراعة التبغ بأكملها فى سوريا على شركة Regie التى يسيطر عليها رأس المال الفرنسى ، وسيطر الرأسماليون الفرنسيون على إنتاج وتصريف الحرير الخام السورى الذى استخدم فى مصانع ليون .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، أى فى ١٨ فبراير ١٨٥٦ ، أباح السلطان العثمانى للأجانب ، تحت ضغط فرنسا وإنجلترا ، تملك العقارات ، وبعد عشر سنوات أصدر فرمانًا منحهم فيه حق تملك الأراضى داخل الإمبراطورية العثمانية .

وكان من أثر ذلك إقبال الأوربيين على ابتياع الأراضى العقارية فى البلاد العربية كمصر وتونس بأسعار بخسة . كما تكونت شركات عقارية أوربية للإصلاح الزراعى ، حصلت على امتيازات بامتلاك أراض واسعة جنت من ورائها أرباحًا طائلة . وتكونت أيضا شركات للرهن العقارى تمكنت من انتزاع مساحات خيالية من يد ملاكها باستغلال أزماتهم الاقتصادية .

وفى الوقت نفسه تأسست فى بلاد العالم العربى الشركات الصناعية والتجارية الأوربية ، التى كان أخطر ما فيها احتكارها للمرافق العامة لمدد طويلة بلغت فى بعض الشركات مائة عام كاملة . مثل شركة مياه القاهرة التى تأسست عام ١٨٦٥ على أن ينتهى امتيازها فى ١٩٦٤ ، وشركة السكر التى تأسست فى مصر عام ١٨٩٢ وتاريخ انتهاء امتيازها ١٩٩٠ ، وشركة قناة السويس التى منح سعيد امتيازها عام ١٨٥٤ لمدة ٩٩ عامًا تبتدئ من تاريخ افتتاحها .

وقد واكب استعباد البلاد العربية الاقتصادى استعبادها المالى عن طريق تكبيلها بالديون السائرة والثابتة . كما حدث فى مصر فى عهد سعيد الذى توفى والخزانة المصرية غارقة فى الديون . فقد بلغ الدين السائر حوالى ٩ ملايين جنيه وبلغ الدين الثابت حوالى تسعة ملايين أخرى . وفى عهد إسماعيل قفزت الديون قفزاً سريعاً حتى بلغت فى عام ١٨٧٦ مبلغ ٩١ مليون جنيه . أما فى تونس فقد حل الإفلاس بها من قبل ذلك ، أى فى عام ١٨٦٧ ، أى قبل ثمانى سنوات من إفلاس مصر . وبلغت ديونها الإجمالية ١٢٥ مليون فرنك . وقد ترتب على ذلك سقوط مصر وتونس تحت المراقبة المالية الدولية التى تشرف على جميع مصادر إيراداتها ومصروفاتها . وقد أخذت فرنسا فى تكبيل مراكش بالديون فى عام ١٩٠٤ ، فأقرضت السلطان عبد العزيز قرضًا قيمته ٦٢,٥ مليون فرنك ، خصص لضمانه ٦٠٪ من إيرادات الجمارك المراكشية . كما أقرضت السلطان عبد الحفيظ فى عام ١٩١٠ مبلغ ١٠٠ مليون فرنك بشروط أشد فتكاً .

وقد وقعت السيطرة المالية فى البلاد العربية فى يد البنوك الأجنبية ، التى لم يقتصر إشرافها على المال السائل والودائع ، بل على التجارة والصناعات . كما هو الحال بالنسبة لبنك الكريدى ليونيه الفرنسى فى مصر ، والبنك الأهلى المصرى الذى كان بنكاً إنجليزيًّا ، وكان من اختصاصه اصدار أوراق النقد – فضلا عن البنوك الأخرى ، مثل بنك بركليز ، والبنك الإنجليزى المصرى الذى أنشئ فى لندن وكان يضم فى مجلس إدارته عناصر فرنسية .

ولم تكتف الرأسمالية الأوربية بهذا الغزو الاقتصادى والمالى للبلاد العربية الذى ألحق بها الخراب ، وإنما عمدت إلى تأمين مصالحها الاستعمارية عن طريق الغزو العسكرى . وقد كانت مصر أولى البلاد العربية التى تعرضت فى مرحلة الاستعمار التجارى للغزو فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان الغرض من غزوها على يد بونابرت ، كما ذكرنا ، شق طريق مائى ينقل التجارة العالمية عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى طريق السويس ، ويقلب ميزان القوى لصالح دول البحر المتوسط . ولكن هذا الغرض فشل كما فشلت الحملة الفرنسية . ولكن مصر دخلت منذ ذلك الحين فى حلبة الصراع العالمى .

وكانت الجزائر أولى الدول العربية التى تعرضت للغزو فى مرحلة التطور الرأسمالى الصناعى بالغزو الفرنسى فى عام ١٨٣٠ . وكان نابليون الأول يعتبر الجزائر سوقا خارجية ضرورية لتطوير الصناعة الفرنسية . وبعد الغزو اتخذ الرأسماليون الفرنسيون الجزائر سوقًا لبضائعهم ومصدرًا للمواد الخام .

وكانت تونس أول دولة عربية تتعرض للغزو فى مرحلة التطور الرأسمالى الاحتكارى ، أو مرحلة الإمبريالية ، بالغزو الفرنسى فى مايو سنة ١٨٨١ . وهذا هو السبب فى أن تونس كانت قد أصبحت من قبل الاحتلال مستعمرة بالفعل . وفى يولية من العام التالى ١٨٨٢ كانت مصر قد لحقت بتونس . وكانت بدورها قد وقعت فى قبضة الماليين الأوربيين وتحولت إلى مستعمرة من قبل الغزو العسكرى البريطانى . ولما كان السودان جزءًا من مصر فقد وقع بالتالى فى قبضة الإنجليز . وفى عام ١٩١٢ استولت فرنسا على مراكش ، التى كانت قد سقطت من قبل هى الأخرى فى قبضة الماليين الفرنسيين ، وأجبرت على توقيع معاهدة الحماية التى سلبتها ليس فقط استقلالها ، بل ووحدة أراضيها ، حيث أصبح القسم الشمالى من مراكش خاضعًا للنفوذ الإسبانى . ثم أخذت إسبانيا بدورها فى احتلال الجزء الخاص بها من مراكش ، وتمكنت بعد معارك طويلة من إخضاعها فى عام ١٩٢٦ . وفى ليبيا بدأت إيطاليا فى غزوها فى عام ١٩١١ واستغرق إخضاعها عشرين عامًا حتى عام ١٩٣١ .

وفى تلك الأثناء كان المشرق العربى واقعًا تحت السيطرة المباشرة للدولة العثمانية . وقد أدى الصدام بين حركة القومية العربية وبين حكومة الاتحاديين إلى تحالف هذه الحركة – التى ارتضت زعامة الشريف الحسين – مع بريطانيا ، وقيام الثورة العربية فى الحجاز فى عام ١٩١٦ . ولكن هذا التحالف لم يعف المشرق العربى من الاقتسام بين فرنسا وإنجلترا بمقتضى اتفاقية سايكس – بيكو فى ربيع عام ١٩١٦ . فخص فرنسا القسم الأكبر من بلاد الشام ، مع جزء من جنوب الأناضول ، ومنطقة الموصل فى العراق . وخص إنجلترا المنطقة الضيقة الممتدة من طرف سوريا الجنوبية حتى العراق حيث تتوسع بشكل مروحة لتضم بغداد والبصرة وجميع البلاد الواقعة بين الخليج العربى والمنطقة الفرنسية ، كما تضم ثغرى حيفا وعكا مع جزء صغير من ساحلهما . واحتفظ بمنطقة أخرى تضم جزءًا من فلسطين كما هو اليوم لإقامة إدارة دولية خاصة . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ صدر التصريح المعروف بوعد بلفور الذى تبدى فيه حكومة بريطانيا ارتياحها لإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وبعد انتهاء الحرب نشأت على أنقاض الوحدة السياسية الجغرافية لبلاد الشام ثلاث وحدات سياسية هى : سوريا ولبنان وفلسطين (بما فيها شرقى الأردن) . ووضعت سوريا ولبنان معًا تحت الانتداب الفرنسى ، ووضعت فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطانى . وبذلك خضع المشرق العربى ممزقًا للاحتلال الفرنسى والبريطانى ، وقامت فيه أنظمة مالية واقتصادية وسياسية متباينة ، ونشأت قوى محلية سياسية وغير سياسية ارتبطت مصلحتها الخاصة بالإبقاء على التمزق ، فتعقدت قضية الوحدة كل التعقيد .

ومن قبل ذلك ، ومنذ الحملة الفرنسية على مصر ، أخذت إنجلترا فى الاهتمام بالسيطرة على شواطئ شبه جزيرة العرب . فاستولت فى عام ١٧٩٩ على جزيرة بريم عند مدخل بوغاز المندب ، ثم انسحبت منها بعد جلاء الفرنسيين عن مصر .

وفى عام ١٨٠٢ عقدت معاهدة تجارية مع سلطان لحج وعدن تعتبر بداية

التدخل فى هذه السلطنة وفى جنوب اليمن . وفى عام ١٨٣٦ استولت على عدن وأصبحت تتحكم بذلك فى مدخل البحر الأحمر من الجنوب . وفى عام ١٨٥٧ احتلت بريم مرة أخرى .

ومع بداية التدخل العثمانى فى جنوب اليمن وما أصبح يهدد به النفوذ البريطانى ، تفتق ذهن بريطانيا عن معاهدات الحماية التى فرضتها على الإمارات والسلطنات والمشيخات ، التى عرفت فيما بعد باسم المحميات . وقد فرضت هذه المعاهدات على سلطنة المهرة (سقطره وقشن) فى ٢٣ أبريل ١٨٨٦ ، وعلى سلطنة الواحدى (بير على) فى ١٣ ابريل ١٨٨٨ ، وعلى مشيخة الحورة فى ٢٨ ابريل ١٨٨٨ ، وعلى سلطنة حضر موت الساحلية (القعيطية) فى أول مايو ١٨٨٨ ، وعلى سلطنة العوالق السفلى فى ٢ يونيه ١٨٨٨ ، وعلى مشيخة العقارب فى ١٥ يوليو ١٨٨٨ ، وعلى سلطنة الفضلى فى ٤ أغسطس ١٨٨٨ ، وعلى شيخ العاطفى فى ١٧ سبتمبر ١٨٨٩ (من الصبيحة) ، وعلى شيخ البرهمى فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨٩ ، (من الصبيحة) ، وعلى سلطنة الواحدى (بلحاف) فى مارس ١٨٩٥ ، وعلى مشيخة العلوى فى ١٦ يوليو ١٨٩٥ ، وعلى شيخ المخدومى (من الصبيحة) فى ٦ أغسطس ١٨٩٧ ، وعلى سلطنة يافع السفلى فى ١١ أغسطس ١٨٩٥ ، وعلى شيخ عرقة فى ٧ يناير ١٩٠٢ ، وعلى شيخ ضبى (من اليافع العليا) فى ١١ مايو ١٩٠٣ ، وعلى نقيب الموسطة (من اليافع العليا) فى ٣ يوليو ١٩٠٣ ، وعلى شيخ المفلحى من اليافع العليا فى ٢٧ أغسطس ١٩٠٣ ، وعلى شيخ الحضرمى (من اليافع العليا) فى ٢٦ سبتمبر ١٩٠٣ ، وعلى سلطان يافع العليا فى ٢١ أكتوبر ١٩٠٣ ، وعلى شيخ العوالق العليا فى ٨ ديسمبر ١٩٠٣ ، وعلى شيخ الصقالدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٠٣ ، وعلى شريف بيحان فى ٢٩ ديسمبر ١٩٠٣ ، وعلى سلطان العوالق العليا فى ١٨ مارس ١٩٠٤ ، وعلى أمير الضالع فى ٢٨ نوفمبر ١٩٠٤ ، وعلى سلطنة الواحدى (بلحاف) فى ٢٣ نوفمبر ١٩٠٥ وعلى سلطان العواذل فى ١٩١٢ ، وعلى شيخ الدبينة (من الصبيحة) فى ١٩١٢ ، وعلى شيخ العلوى فى يوليو ١٩١٤ ، وعلى سلطان الحواشب فى سبتمبر ١٩١٤ ، وعلى

شيخ قطيب فى يونيه ١٩١٥ ، وعلى سلطان الكثيرى فى ١٩٣٩ .

وفى تلك الأثناء كانت بريطانيا تبسط سيطرتها على الخليج العربى . فقد استطاعت بعد حملة بحرية كبرى خرجت من بومباى فى ٣ نوفمبر ١٨١٩ الدخول مع رؤساء القبائل الساحلية ، فى المنطقة الواقعة بين قطر وحدود سلطنة عمان ، فى اتفاقيات مختلفة أبرمت فى يناير ١٨٢٠ وأصبحت دعامة النفوذ البريطانى على هذا الساحل الذى أصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم الساحل المهادن Trucial Coast .

وبعد هذه الاتفاقيات ، التى اتخذت شكل معاهدة ، أخذت هذه المشيخات القبلية الواقعة فى شمال سلطنة عمان تتحول إلى وحدات سياسية أو دويلات صغيرة . وفى ١٨٤٢ أرادت بريطانيا أن تستبدل بهذه الاتفاقيات ، التى كانت تجدد سنويًا ، اتفاقًا عامًا ، فأبرمت فى أبريل ١٨٤٣ معاهدة جديدة لمدة عشر سنوات قابلة للتجديد . وفى مايو ١٨٥٣ أبرمت اتفاقاً دائما مع الشيوخ تعهد فيه هؤلاء باحترام اتفاقيات معاهدة ١٨٤٣ بصفة دائمة ، وأن تكون المحافظة على السلام تحت إشراف بريطانيا التى تعمل على تنفيذ احترامه ، وقد وقع على هذا الاتفاق حكام الشارقة ، وأبو ظبى ، ودبى ، وأم القيوين ، والعجمان .

وفى ١٨٦١ فرضت بريطانيا على البحرين ، التى أعلنت إمارة قائمة بذاتها ، معاهدة تضمها إلى المعاهدة الدائمة ، ثم وضعتها تحت الحماية وأصبحت صاحبة التصرف فى شئونها الداخلية وسياستها الخارجية بمقتضى اتفاقيتى سنة ١٨٨٠ و١٨٩٢ .

وفى ١٨٩٢ وقع حاكم أبو ظبى معاهدة مع إنجلترا تعهد فيها بالامتناع عن إقامة علاقات مع دولة أجنبية غير إنجلترا . ثم تبع حاكم أبو ظبى فى هذه المعاهدة حكام الشارقة ، ودبى ، وعجمان ، وأم القيوين ، ورأس الخيمة .

وفى ١٨٦٨ عقدت معاهدة بين بريطانيا وقطر فصلت شبه جزيرة قطر عن

البحرين . ولكن فى العام التالى لقيام الإمارة ، اتجهت قطر إلى الارتباط بالدولة العثمانية لحمايتها من أطماع آل خليفة فى البحرين ، فكانت آخر إمارة عربية سقطت تحت النفوذ البريطانى وارتبطت مع بريطانيا بمعاهدة مانعة فى ١٩١٦ .

وفى ٢٣ يناير ١٨٩٩ عقدت بريطانيا مع شيخ الكويت اتفاقًا سريًّا تعهد فيه بالامتناع عن قبول أى تمثيل سياسى أجنبى دون تصريح من الحكومة البريطانية ، والارتباط بمحالفة أبدية مع بريطانيا التى تتعهد بحماية مصالحها فى الخارج . وقد فتحت هذه المعاهدة المجال لبريطانيا ، ليس فقط للتدخل فى شئون الكويت ، وإنما فى شئون نجد وجنوب العراق ، ومكنتها من ضرب النفوذ الألمانى فى الخليج . وفى أوائل عام ١٩٠٣ أعلن كيرزن فى مجلس العموم أن شيخ الكويت محمى بريطانى ، وأن بريطانيا ترتبط معه بمعاهدات واتفاقيات خاصة ، فكان هذا أول إعلان رسمى بشأن الحماية البريطانية على الكويت .

أما سلطنة مسقط أو عمان ، التى كانت إمبراطورية من أهم الإمبراطوريات الشرقية فى أثناء العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر ، تسيطر على الساحل الأفريقى من ميناء « لامو » فى الشمال إلى ميناء كيلوه فى الجنوب ، فكانت قد انقسمت فى عام ١٨٦١ إلى سلطنتين : مسقط ، وزنجبار ، كنتيجة لتدخل الحكومة البريطانية ، التى انتهزت فرصة وقوع النزاع بين أبناء السلطان سعيد لفرض تحكيمها فى النزاع ، ومنعت « ثوينى » سلطان مسقط بالقوة من توطيد مملكته . وما لبثت مسقط ذاتها ، التى كانت تضم الجزء الداخلى (عمان) وملحقاتها فى الخليج العربى - أن تعرضت بدورها للانقسام ، حين ثار الأباضية فى عمان على زعامة مسقط ، وقرروا إحياء الزعامة القديمة فى عام ١٨٦٨ ، واستولى زعيمهم عزان بن قيس على مسقط ، وأعلن إماما على مسقط وعمان . ولكن دعم الحكومة البريطانية لمنافسه « تركى بن سعيد » ، الذى سمحت له بمغادرة الهند لهذا الغرض ، أدى إلى إنهاء حكم عزان وسقوط مسقط فى يناير ١٨٧١ .

ولكن العمانيين لم يكفوا عن الثورة ، وتمكنوا من احتلال مسقط مرة أخرى

فى عام ١٨٩٥ . وفى عهد فيصل بن تركى أتيحت الفرصة للإنجليز لإبرام معاهدة سرية معه تضع بلاده تحت الحماية البريطانية الفعلية . فقد تعهد فيها بألا يتنازل أو يبيع أو يرهن أو يسمح باحتلال أى جزء من أراضى عمان أوأى من ملحقاتها لأية دولة ما عدا الحكومة البريطانية . واعتبرت بريطانيا هذه المعاهدة خطوة لوضع مسقط تحت الحماية البريطانية ، كما اعتبرت كل تدخل أجنبى فى شئون مسقط موجهًا ضد بريطانيا .

وفى عام ١٩١٣ نشبت الثورة من جديد فى عمان ، وبعث العمانيون الإمامة ، وبايعو الشيخ سالم بن راشد الخروصى ، وتمكنوا من دخول « نزوى » واستولوا على بيت السليط والرستاق ، وزحفوا على بلاد الحزم . وفى ٧ يوليو ١٩١٣ بعثت حكومة الهند بقوة عسكرية بناء على طلب السلطان ، للدفاع عن مسقط ، ولكن الثوار استولوا على وادى سمائل وعلى التلال الهامة . وجاءت الحرب العالمية الأولى وانشغال إنجلترا بالحرب ليجد فيها الثوار الفرصة للهجوم على مسقط فى يناير ١٩١٧ . ومع أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، إلا أن قواتهم ظلت تحيط بالعاصمة . وعند نهاية الحرب كانت فى عمان دولتان : دولة على الساحل يحكمها سلطان مسقط من أسرة البورسعيد ، والأخرى فى الداخل يحكمها الإمام . وفى عام ١٩٢٠ عقدت « معاهدة السيب » التى اعترفت فيها كل من بريطانيا وسلطان مسقط بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للعثمانيين .

وفى ذلك الحين كان الصراع يدور فى شمال شبه الجزيرة العربية بين آل رشيد حكام شمر ، الذين كان يؤيدهم العثمانيون والألمان ، وبين آل سعود أمراء الرياض . الذى كان يؤيدهم الإنجليز . وقد تمكن آل الرشيد من تقويض عرش آل سعود فى الرياض فى ١٨٩١ . ولجأ عبد الرحمن الفيصل وولده عبد العزيز إلى آل مبارك فى الكويت . واستمر احتلال الرياض وأواسط نجد من قبل آل الرشيد ما يزيد على عشر سنوات ، إلى أن تمكن عبد العزيز من استعادة الرياض فى ١٥ يناير ١٩٠٢ بمغامرة أشبه بالأساطير ، وبعثت الإمارة

الوهابية من جديد إلى حدودها السابقة ، برئاسة آل سعود . وفى عام ١٩١٣ استولى عبد العزيز على الإحساء من العثمانيين فوصل بذلك إلى الخليج العربى ، وأصبحت بريطانيا جارة له جهة الشرق فى الخليج . وفى عام ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى ، وخشى عبد العزيز أن تحتل إنجلترا موانى نجد والإحساء باعتبارها من ممتلكات الدولة العثمانية ، فأبرم مع بريطانيا فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ معاهدة تعهد فيها بألا يعقد معاهدات أو اتفاقيات مع دولة غير الحكومة البريطانية ، والتزمت بريطانيا بمساعدته ضد أى دولة أجنبية . وقد عدلت هذه المعاهدة فى ١٨ يوليو ١٩١٦ وظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٢٧ عندما استبدلت بمعاهدة جدة .

٣ - ظاهرة المقاومة فى الوطن العربى

ظاهرة المقاومة فى العالم العربى وقواها المحركة ، ظاهرة معقدة وليست بسيطة ، ترتبط بتباين التركيب الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى الوطن العربى . كما ترتبط بتباين الأساليب الاستعمارية المستخدمة . قد تميزت المجتمعات العربية بأنها لم تكن مجتمعات عربية خالصة ، وإنما كانت مجتمعات إسلامية بالدرجة الأولى ، فقد تواجدت فيها إلى جانب العناصر العربية عناصر أخرى إسلامية من الشراكسة والأتراك والألبان أو الأرناءود وغيرهم شكلت أرستقراطية ركبت جميع الطبقات .

ومع أن هذه الأرستقراطية لم تكن أرستقراطية قومية ، الا أنها كانت أرستقراطية وطنية ، بمعنى أنها كانت تعتبر الوطن العربى وطنها الأول ، وتهب للذود عنه بالمهج والأرواح . على أنه لما كانت هذه الأرستقراطية أجنبية المنبت ، فلم يكن ولاؤها لهذا الوطن يصل إلى مرتبة الولاء القومى . ففى مصر كان المماليك هم القوة الحربية الرئيسية التى واجهت الحملة الفرنسية ، وفى مقابلة عاصفة بين مراد بك والوالى التركى أبو بكر باشا يعطينا الأمير المملوكى الانطباع بأنه صاحب البلد وأن الوالى التركى أجنبى عن البلاد ، فيوجه له الاتهام بالتآمر من جانب دولته على مصر قائلا : « إن الفرنسيين ما جاءوا هذه الديار إلا بإذن من الدولة العثمانية ، ولابد أن يكون عندكم علم بذلك ، ولكن الله يساعدنا عليكم وعليهم » . على أن هؤلاء المماليك أنفسهم مع ذلك ، كان منهم من طلب الدخول فى خدمة الفرنسيين بعد انتصارهم ، بحجة أنهم كانوا جنودًا فى الجيش النمساوى وأسرهم الأتراك ثم أصبحوا مماليك . بل لقد أدخل الفرنسيون فى صفوف الجيش الفرنسى جميع المماليك الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة .

كذلك فإن محمد على الألبانى ، كان هو الذى بنى الإمبراطورية المصرية ، ونقل مصر إلى العصر الحديث ، وكان خير الدين باشا فى تونس مملوكا من أصل شركسى ، ومع ذلك فقد كان مصلحًا دستوريًّا كبيرًا . وقد كان إسماعيل باشا هو الذى استصدر الفرمانات التى استخلصت استقلال مصر الداخلى من قبضة الحكم العثمانى ، ومع ذلك فإن ابنه توفيق هو الذى تواطأ مع الإنجليز وساعدهم على احتلال البلاد .

وقد تولد من الاختلاط الجنسى بين العناصر القومية والعناصر الإسلامية عنصر ثالث أو طبقة ثالثة ، اتخذت وضعا متميزا داخل المجتمع العربى ، كان يبتعد بها تارة عن العنصر القومى ويقترب بها منه تارة أخرى ، كما هو الحال فى مصر بالنسبة للأرستقراطية المصرية التى انحدرت غالبيتها من أصول ألبانية أو شركسية أو تركية ، وكانت تحتل موقعًا يجعلها فى حالة صراع مع كل من الوطنيين والعثمانيين أويجعلها فى حالة تعاون مع الفريقين (الثورة العرابية) . وكما هو الحال فى الجزائر بالنسبة لطبقة الكراغلة Coluglu التى تكونت نتيجة التزاوج بين الجند الانكشارية ونساء البلاد . وكانت هذه الطبقة متحالفة مع السلطة التركية ، وينظر إليها أهالى البلاد نظرتهم إلى الأتراك الحاكمين . وقد عبر موقف الأمير عبد القادر الجزائرى من كراغلة تلمسان وزواتنة القبائل ذوى الأصل الكرغلى ، تعبيرًا صادقًا عن هذه النظرة . ومع ذلك فقد كان على يد أحد الكراغلة ، وهو الحاج أحمد ، باى قسنطينة ، أن ظهرت حركة مقاومة على أعظم جانب من الأهمية أنزلت هزائم مبينة بالفرنسيين .

وقد كانت أهم قوى المقاومة التى واجهت الاستعمار فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هى القبائل ، التى كانت تشكل القوة الاجتماعية الرئيسية فى معظم أجزاء الوطن العربى .. ولكن هذه القوة التى كانت تتميز بالروح العسكرية والصلابة كانت فى الوقت نفسه تفتقر إلى الروح النظامية التى تتميز بها المجتمعات النظامية الحديثة ، كما كانت تسيطر عليها الروح القبلية الانقسامية التى شتتت جهودها وأوقعتها فى منازعات عنيفة

وحروب دموية لم يستفد منها سوى الاستعمار . وفى هذا الضوء يمكن إدراك النتائج التى حققها مثل نضال عبد القادر الجزائرى ضد الفرنسيين ، فى الوقت الذى كان يتعرض لمعارضة قبائل المخزن وبعض القبائل الأخرى ، ويضطر إلى خوض الحروب ضدها . كما يمكن فهم الاتفاقيات التى عقدها المستعمرون الفرنسيون مع بعض القبائل مثل قبيلتى الدوائر والزمالة فى ١٦ يونية سنة ١٨٣٥ ، وبمقتضاها أصبح أفراد القبيلتين رعايا فرنسيين . كذلك يمكن فهم النتائج التى حققتها ثورة الريف تحت قيادة الأمير عبد الكريم الخطابى . فى ضوء صراعه مع أحمد بن محمد الريسولى زعيم قبائل جبالة . أو فهم النتائج التى حققها نضال الطرابلسيين ضد الإيطاليين فى ظل النزاعات القبلية بين رمضان السويحلى زعيم مصراته . وأحمد المريض زعيم ترهونه ، وعبد النبى بلخير زعيم ورفلة ، وسليمان الباروني زعيم الجبل الغربى . أو فهم الاتحاد بين طرابلس وبرقه ، برغم النزاعات بين الطرابلسيين والسنوسيين .

ولقد كان الوضع الاقتصادى للقبائل من العوامل الهامة التى حددت أسلوب مواجهتها للاستعمار وطريقة تعاملها معه . ففى المناطق الجبلية الزراعية فى المغرب والجزائر وتونس والعراق وسوريا ، حيث كانت الأرض ملكًا مشاعًا بين أفراد القبيلة ، وحيث اشتغلت القبائل بالزراعة والرعى - ناضلت هذه القبائل نضالا شرسًا . ولكن الأمر اختلف بالنسبة للقبائل التجارية فى الخليج العربى ، حيث سيطرت على الوحدات السياسية فيها أسر من التجار ممن جمعت ثروات من عمليات النقل والتجارة أو القرصنة ، وحيث تشتد بالتالى المنافسة والمنازعات والحروب الأهلية . فقد سهل على إنجلترا ربط هذه القبائل معها باتفاقيات تضعها تحت حمايتها ، ودفع مرتبات لشيوخها .

وقد لعب الدين والطرق الصوفية دوراً هامًّا فى مقاومة القبائل للمستعمرين ، كما حدث فى ليبيا حيث لعبت الدعوة السنوسية دورًا رئيسيًّا فى لم شمل القبائل وتأسيس الزوايا السنوسية ، التى كانت عبارة عن تشكيلات عسكرية وسياسية ترتكز على الدين - فقد كانت السنوسية هى التى تصدت للمستعمرين

الإيطاليين . وفى الوقت الذى أدى تمزق طرابلس بين القيادات القبلية والإقطاعية إلى سقوطها السريع فى وجه الفاشية الإيطالية ، ثبتت المقاومة فى برقة على يد عمر المختار إلى عام ١٩٣١ . وقد لعبت الأباضية دورًا هامًّا فى توحيد القبائل فى عمان الداخلية ، وتمكنت الإمامة ، التى ظهرت فى القرن الثامن وحافظت على استمراريتها بدرجة كبيرة ، من الذود عن استقلالها برغم خضوع السلطنة فى مسقط للإنجليز .

كذلك لعبت الدعوة الوهابية فى نجد دورًا هامًّا فى توحيد القبائل العربية فى نجد وجميع أراضى الجزيرة العربية كلها فى وحدة كاملة ، وتكوين وحدة مركزية ذات تنظيم إدارى متميز المعالم . وفى اليمن لعبت الإمامة الزيدية دورًا وحدويًّا فى المناطق الساحلية ، ومقاومة المستعمرين الأتراك . وفى الجزائر لعبت الطريقة القادرية دوراً كبيرًا فى مساعدة الأمير عبد القادر على إقامة دولة . كما لعبت الطريقة الرحمانية دورًا أساسيًّا فى ثورة المقرانى سنة ١٨٧١ فى بلاد القبائل . وقد كان للنفوذ الدينى الكبير للشريف حسين أمير مكة أثر كبير فى توحيد القبائل ، بل وفى التفاف القوميين العرب حوله .

على أنه وجد إلى جانب الدور الإيجابى للطرق الصوفية دور سلبى وعميل . فإذا كانت الطريقة القادرية قد ساعدت الأمير عبد القادر الجزائرى على قيام دولة ، فإن الطريقة الطيبية والطريقة التيجانية قد وقفتا موقف المعارضة من حركته ، وقد لعبت الطريقة التيجانية دورًا عميلا للفرنسيين ، وصفه بول أودينو Paul Odino فى مؤلفه عن « الدور السياسى للطرق الصوفية والزوايا فى مراكش » بقوله : « لقد ظل التيجانية يقدمون لنا الخدمات طيلة ستين عامًا . وقد بدأنا منذ ١٩١١ فى استخدام نفوذهم الكبير فى جنوب مراكش وفى موريتانيا والريف . كذلك لعبت الطريقة الدرقاوية فى مراكش نفس الدور العميل ، وكذلك الطريقة الوزانية التى قدمت خدمات كبيرة لفرنسا ، وحصل شيخها عبد السلام الوزانى على الحماية الفرنسية قبل احتلال فرنسا لمراكش . كما تحالفت الطريقة الكتانية مع الحماية الفرنسية ضد سلطان مراكش والقضية الوطنية .

وفى الوقت نفسه لعب الدين دورًا هامًّا فى توجيه حركة المقاومة فى الشام نحو الفكرة القومية العربية بمعناها الانفصالى عن الدولة العثمانية . فقد قامت هذه الحركة على أكتاف المسيحيين اللبنانيين بسبب إحساسهم بالغربة فى الإمبراطورية العثمانية . وتضمنت المنشورات الثورية لجمعية بيروت السرية التى ظهرت عام ١٨٧٥ ، منح الاستقلال لسوريا متحدة مع لبنان ، ومناشدة الناس تذكر أمجادهم الغابرة . على حين اتجه الدين الإسلامى بالجماعات القومية الأخرى إلى الدعوة القومية التى تطالب بالإصلاح والاستقلال الذاتى فى إطار الإمبراطورية العثمانية .

وقد كان الفلاحون هم عنصر المقاومة الرئيسى فى المجتمعات العربية التى تختفى منها القبلية . كما هو الحال فى مصر . فلم تكف القرى المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى عن مقاومة القوات الفرنسية الغازية فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر . برغم مسارعة القوات الفرنسية إلى إخمادها . حتى لقد وصفها ريبو Reybaud بأنها كانت كالحية ذات المائة رأس « كلما أخمدها السيف والنار فى ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت عليه » ، وفى أثناء أحداث الثورة العرابية . سارع الفلاحون إلى تأييد عرابى بتختيم عرائض بتوكيله للدفاع عن البلاد ، وذلك بعد قبول توفيق للمذكرة المشتركة الثانية واستقالة وزارة الثورة ، وقد تطوعوا للقتال فى جانب الجيش ، وبلغ عدد المتطوعين من مديرية المنيا وحدها ٢٦٠٠ متطوع ، ومن مديرية سوهاج ٢٠٠٠ . وفى المناطق الواقعة بالقرب من بحيرة المنزلة ، التى تمتد شواطئها عبر مديريتى الشرقية والدقهلية . صدرت أوامر عرابى بتسليح الفلاحين وتنظيمهم . واتخذت حركة الفلاحين بعدًا طبقيًّا فى أثناء الثورة ، فقد استولوا على أراضى بعض كبار الملاك ووزعوها على أنفسهم . وفى أثناء ثورة ١٩١٩ ، حمل الفلاحون العبء الرئيسى للنضال ضد الإنجليز . فقطعوا خطوط المواصلات ، واقتلعوا خطوط السكك الحديدية ، وحطموا الجسور ، وهاجموا مراكز البوليس وحاصروا القوات البريطانية .

وإذا كانت قيادة المقاومة قد وقعت فى يد القيادات القبلية فى شمال أفريقيا ،

فقد وقعت فى مصر وفى المشرق العربى فى يد القيادات البورجوازية . ولهذا اختلف أسلوب المقاومة ، ففى حين كان الأسلوب الأساسى للقيادة القبلية هو أسلوب الكفاح المسلح ، كان أسلوب القيادات البورجوازية هو أسلوب الكفاح السياسى . كما هو الحال فى سوريا والعراق ، حيث كونت الطبقة البورجوازية الجمعيات والأحزاب والنوادى السرية والعلنية وأقامت المؤتمرات ، وكما هو الحال بالنسبة لمصر حيث اعتبرت البورجوازية المصرية الدستور الباب الرئيسى للاستقلال ، وخاضت لذلك المعارك لاستخلاص الحرية الداخلية والخارجية .

ومع ذلك فإن بعض الأجنحة الكومبرادورية من الطبقة البورجوازية لعبت دورًا عميلاً ، كما حدث فى مراكش حيث استطاعت فرنسا قبل الاحتلال تكوين شبكة واسعة من عملائها من بين التجار المحليين والرأسماليين الزراعيين الذين طلبوا الحماية الفرنسية للتمتع بالحصانة الضريبية والقضائية ، وسموا بالمحميين .

وقد كان نضال البورجوازية العربية ضد الاستعمار نضالا معقدًا . فلم يكن مجرد تحرير أرض . وإنما كان بالدرجة الأولى تحرير الاقتصاد الوطنى من أيدى الرأسمالية الأوربية المسيطرة . وقد كان هذا هو الدور التاريخى للبورجوازية العربية .

وعلى كل حال فإن المقاومة العربية للاستعمار الأوربى قد مرت بمرحلتين : المرحلة الأولى ، مرحلة مقاومة الغزوة الاستعمارية . والمرحلة الثانية ، مرحلة التخلص من الحكم الاستعمارى وانتزاع الاستقلال . ولكل من المرحلتين سماتها الخاصة . وقد منيت المرحلة الأولى بالفشل ، وترتب على ذلك سقوط العالم العربى تحت الاستعمار ، ولكن المرحلة الثانية ، وهى التى يطلق عليها اسم الحركة الاستقلالية ، أو حركة التحرر الوطنى ، منيت بالنجاح ، واستطاعت الشعوب العربية المناضلة أن تسترد حريتها وإرادتها واستقلالها

وثرواتها ، ولكن ما كادت تنجح فى ذلك ، حتى كان الاستعمار يزرع إسرائيل فى المنطقة العربية لتمثل تحديًا جديدًا لقدراتها النضالية وروح المقاومة الصلبة فيها ضد أعتى ألوان الاستعمار . فهل ينجح العالم العربى فى هزيمة الصهيونية كما هزم الاستعمار . هذا يتوقف على تمثله كل خبرات المقاومة القديمة واستيعاب دروس النضال .

مراجع للاستشارة :

- د . جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير (كتاب الهلال ٢٠٥ - ابريل ١٩٦٨) .
- د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية (١٩٤٠ - ١٩١٤) (مطبعة عين شمس ١٩٦٦) .
- د . صلاح العقاد : الاستعمار فى الخليج الفارسى (سلسلة الألف كتاب عدد ١٢١) .
- د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى (الانجلو المصرية ١٩٦٥) .
- د . صلاح العقاد : المغرب العربى (الانجلو المصرية ١٩٦٩) .
- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ ١ ، ٢ ، ٣ .
- د . عبد العظيم رمضان : صراع الطبقات فى مصر (بيروت ١٩٧٨) .
- د . عبد العظيم رمضان : مع آخرين : أوروبا فى عصر الرأسمالية ، الفصل ٢ ، ٤ ، ١١ (دار الثقافة العربية ١٩٨٣) .
- لينين : الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية (موسكو) .
- ماركس وانجلز : بيان الحزب الشيوعى (موسكو ١٩٦٨) .

- Combridge Medieval History, Vol. 4 (Cambridge at the University Press 1929)

- Marlowe, John : Spoiling the Egyptions (London 1974)